.qxd 29/12/2007 11:19 Page 23

النهر دائماً يفيض ....

علّمنا ليُو تولستوي في رائعته ''الحرب والسلم''، أن ''ما من حادث بذاته يمكن أن يُعدّ سبباً جوهرياً لنشوب الحرب، وإنما الصواب، أن جميع تصرفات البشر وأحداث التاريخ، إن هي إلا فقاقيع تطفو على مياه نهر، والنهر يفيض دائماً وينتهي إلى مصب، فأحياناً يصب في السلام، وأحياناً يصب في الحرب. وما من كائن بشري أو مجموعة من الكائنات تملك أن تصده، أو تحوّل مجراه''.

ورسالة تولستوي هذه، أو فلسفته، أو تفسيره للأحداث، ودلالات الحرب والسلم .. الهزيمة والنصر- في كل زمان ومكان - تريد أن تقول للناس قولاً بسيطاً مفعماً بالدلالات والحكمة، مفاده: ''لا تنزعجوا ولا تحاولوا أن تفهموا .. فإن ذلك لا يعود عليكم بغير البلبلة العقيمة. وإنما أدوا واجبكم عندما يحين حينه، وستعرفونه كاملاً في أوانه''.

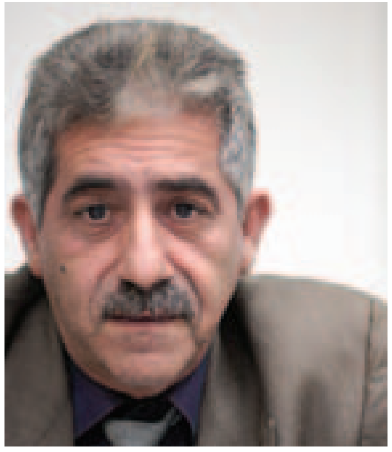

أحمد البوسطة:

وددت من هذه المقدمة أن أدخل مع الداخلين في معركة طاحنة شغلتنا طويلاً، وأخذت منا ما استطاعت أن تأخذه، كما أضافت ما أضافته من آلام وأوجاع، وسببت لجيلنا قرحة وخيبات تلو خيبات .. كما انتفع منها متسلقون، أفّاقون، منافقون ما فتئوا يصطادون في الماء العكر، ومتنفذون يخشون على كراسيهم من الضياع، وجشعون لا يهمهم لو ضاع الوطن وتشرد أبناؤه .. بينما، لم نجد، في حينه، حتى الآن، مخارج أو حلول غير تلك التي عهدناها سابقاً بزوار الليل الذين يهشمون النوافذ والأبواب ويعبثون في الحاجيات، وينتهكون الحقوق بلغات ولهجات عربية وأجنبية مختلفة.. وكل هذه المخارج والحلول تثبت فشلها في أول اختبار حين يأتي الحديث عن الديمقراطية ودولة المؤسسات والقانون، وعندما نسأل: لماذا يا وطني الطيب.. لماذا؟ فتجد إجابات في قوالب جاهزة؛ وأكاذيب ما أنزل الله بها من سلطان، تعيدنا إلى المربع الأول .. إلى بيت الطاعة، حيث تكون الزوجة عصمتها في يدها، وأيضاً، بين عام وعام، وبين مشكلة وتأجيلها (ومشكلة المشاكل تأجيل المشكلة) نبدو وكأننا نتابع سيرك سئمنا من مشاهدته.. من إدارته السيئة.. من أدائه السيء .. من حركاته المملة .. من عروضه المتكررة، ولغته المتشابهة. وهكذا، في كل فاجعة تنطلق سلسلة من الأسئلة الهامة والأكاذيب التي تستشعرها أصغر ربة بيت بحرينية حين تطرح بين الحين والحين، مع إنها لا تزال أبعد من أن تتوضح، وهي تتمفصل حول نقطة جوهرية تتجسد في العملية الانتقالية، أو التحول العام صوب المجتمع الصالح، وأكثر صراحة وتقرباً من توضيح الفكرة: تتمحور حول تحقيق العدالة الانتقالية المفقودة عندنا.

وهذه العدالة الانتقالية، ليست بدعة من بدع السياسة، وليست مهاترات أمنية، أو غنج سياسي للتسلية، وأيضاً ليست هراء ديماغوجي يحلو للبعض ترديده، وإنما هي علاج يُدرّس منذ فترة طويلة في معاهد وجامعات الدول المتحضرة، واستفادت منها دول كثيرة مارست الانتهاكات لحقوق الإنسان في حقبها السابقة، المظلمة، مثل جنوب إفريقيا، سيراليون، الأرجنتين، تشيلي ، المغرب وغيرها، وإن كانت نجاحاتهم متفاوتة بحجم سقوف لجان الحقيقة وصلاحياتها وحقيقة صدق التحولات نحو الديمقراطية واستحقاقاتها من عدمها، ناهيك عن اتباع الأساليب الالتفافية لإفراغ المضامين من محتواها في بعض الدول ومن بينها البحرين.

والعدالة الانتقالية في أسمى تجلياتها تعني: تقريب الدول المنتهكة لحقوق الإنسان، فيما مضى، صوب الديمقراطية، ذلك، إذا كانت أي دولة تريد طبعاً لهذه الديمقراطية أن تترسخ وتتطور لما فيه خير الإنسان والعباد وتبديد الاحتقانات، ونبذ الكراهية، ووقف الثارات بين الضحية والجلاد، وزرع الثقة بين الدولة ومواطنيها؛ وهذا لن يكون بطي صفحة الانتهاكات. هكذا ببساطة - وكأن شيئاً لم يكن، بل باعتراف المنتهك ومن ورائه بارتكاب فظائع قتل وتعذيب وأذى بالمواطنين... ومن ثم الاعتذار عما بدر منهم بشكل واضح وصريح، وأيضاً وبحكم مقاسات العدالة الانتقالية ووفق المعايير الدولية، تقوم الدولة التي مارست القمع بتعويض الضحايا وأسرهم ومحاسبة المسؤولين عن هذه الانتهاكات ... هذا؛ أو استمرار الفواجع.

عندنا في البحرين، الأمور تمشي بالمقلوب، فبيانات الداخلية وجوقة بعض أسماء من كتّابنا يفكرون من أحذيتهم، فبدل أن يقولوا للصح لصح ، وللخطأ خطأ في كل شاردة وواردة، نجدهم متخصصين في بعث رسائل للمعارضة ويتهمونها بالتحريض على العنف وكراهية الوطن، ولا يبعثوا برسالة واحدة إلى الحكم، وكأن الدولة لا يأتيها الباطل لا من فوقها ولا من تحتها، وكل ما تفعله بالناس نابع من فهم مصالحهم أكثر منهم (تماماً كما يردد الدكتاتور هيلا سيلاسي المقبور) .. ترى، هل هذه الكتابات الاستفزازية من شأنها أن تفيد الحكم والمواطنين، أم إنها تسكب الزيت على النار؟.

الشطارة، ليست تعليم المعارضة كيف تمشي، وعلى أي خطوط تسلك بلغة أستاذية، وكأن المعارضين ليسوا من المواطنين، وليسوا عقلاء، ولا يحبون الوطن. لا يا إخوان، ما هكذا تورد الإبل!!، فالأحداث التي شهدتها البحرين وتشهدها، ليست منزلة من السماء قاصدة بلادنا بالتحديد دون غيرها، فهناك تراكمات كمية، وملفات منتفخة لا توجد جدية لمعالجتها.. والتراكمات الكمية دائماً تؤدي إلى تحولات نوعية .. والنهر دائماً يفيض وينتهي إلى مصب؛ فإلى أي مصب سينتهي بنا المطاف؟! .. هذا ما سنعرفه في حينه، والعبرة بالنتائج!!.